

"الحديقة المزخرقة في حواشي القهوة المرتشفة"

لمحمد بن عبد الرحمن الديسي

(1270 - 1339هـ/1854 - 1921م)

أ / عادل لخضر
جامعة بومرداس

من يطلع على كتب تاريخ المغرب الإسلامي وكتب الطبقات والتراجم كعنوان الدراية للغبريني (ت 704هـ)، أو وفيات ابن قنفذ (810 هـ)، أو البستان لابن مريم المليتي (1014هـ) أو تعريف الخلف للحفناوي (ت بعد 1936م) يعلم كم كانت الجزائر عامرة بدور العلم المختلفة ما بين كتابات ومدارس وجوامع في المدن والحواضر الكبرى والقرى، والزوايا المنتشرة في البوادي وفي رؤوس الجبال، وكانت تتنافس مدارس المشرق والأندلس سمعة وعطاء علميا، وأكثر من ذلك كانت مقصد طلاب العلم والعلماء على حدّ سواء، ولاسيما في فترات قوة الدول التي كانت تحكم المغرب العربي وازدهارها كجاية وتلمسان وبلاد زاوة وغيرها كثير.

وكان يقوم على هذه المؤسسات العلمية علماء بلغت شهرتهم وحسن صيتهم المشرق ومؤلفاتهم لاقت القبول عند العام والخاص، وتتنافس الأمراء والحكام في الاهتمام بالعلم والعلماء فقربوهم منهم وأجزلوا لهم العطاء، فجاء إنتاجهم العلمي وافرا ومتنوعا شمل علوم الدين والدنيا.

ثم يدرك بعد ذلك سرّ عظمة هذه الأمة بما أنجبته من علماء عظام ساهموا بقسط وافر في ترقية الحضارة الإنسانية؛ بما قدموه من جهود علمية تدرّسا وتأليفا في شتى مجالات العلم، علماء من أمثال: الغبريني وابن مرزوق الجد والحفيد وابن قنفذ، والسنوسي صاحب العقائد، وابني الإمام والشريف التلمساني والونشريسي، والمقرّي والثعالبي والمغلي والشاوي، وقدورة وابن عمار والبوني، وأبي راس المعسكري، وعبد القادر المجاوي وعبد الرحمن الديسي وغيرهم كثير لا يسعنا المقام لذكرهم وذكر مآثرهم العلمية.

فعلى قدر ما يأخذنا الإعجاب بهم والإعظام لهم والتقدير لأعمالهم العلمية يأخذنا الأسى على الغفلة أو التغافل عن التراث العلمي الكبير الذي خلّفوه لنا، وعلى تركه عرضة للضياع وقد أخذ منهم كل جهودهم وحياتهم، فلولا جهود بعض الأساتذة الذين انبروا للقيام بمهمة إخراج هذا التراث إلى النور وبعث الحياة فيه من جديد، ثم صونه وتقديمه لطلاب العلم، وأعظم بها من مهمة فقد حفظوا ما استطاعوا من درر علمية نفيسة، ولكن تبقى جهودهم غير كافية بالنظر لضخامة هذا التراث ما لم نحمل نحن المتخصصين اليوم في تحقيق

المخطوطات معهم وعنهم ثقل هذه المهمة ، مستفيدين من خبراتهم التي حصلوها بعد سنوات من الجهد المضني في سبيل تحقيق وإخراج بعضها.

وفي هذا الإطار وتكملة للمسار الذي سلكته من أجل تحضير شهادة الماجستير في هذا التخصص ، وبعد أن نقبت عن بعض هذه الكنوز المخبوءة في بطون المتون والفهارس ، وجهني - مشكورا - أحد الأساتذة المهتمين بإحياء التراث إلى درة نفيسة ، هي من أنفس الدرر التي ورثها فخر الجزائر⁽¹⁾ ومعلم زاوية الهامل ببوسعادة الأول وإمامها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين ميلادي؛ الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الديسي (1270 - 1339 هـ/ 1854 - 1921 م)⁽²⁾ ، الذي لم يسافر كثيرا في طلب العلم - كعادة طلبة العلم في ذلك الوقت - ولم يأخذ عن كثير من المشايخ فقد أخذ عن الشيخ ابن بلقاسم بن عروس والشيخ محمد الصديق في قريته القرآن وعلوم العربية ، ثم انتسب إلى زاوية سيدي السعيد بن أبي داود في جبل زاوية فأخذ عن شيخها محمد الطيب ، ثم أخذ عن الشيخ محمد بن أبي القاسم شيخ زاوية الهامل التصوف لما انتسب إليها معلما ولكنه مع ذلك حصل علوما جمة تنوعت بين علوم اللغة والأدب كالتنحوي والصرف والبلاغة والشعر والرسائل والألغاز والمناظرات ، وعلوم القرآن والعقيدة والفقه وأصوله ، وعلوم الحديث والتصوف والمنطق والذي يبعث على العجب أن بصره كفاً وهو صبي ، فهو بحق كما وصفه الكتاني في فهارسه: فخر الجزائر وشمسها و" مجدد رسوم الحديثية ، ومحبي دارس الآثار المصطفية بالمغربين ، بل حافظ الخافقين ، المشرق نوره بالمشرقين ، بلا مرية ولا مين"⁽³⁾ ، ولا غرو وقد كان الشيخ ابن باديس يرأسه مستفتيا في بعض المسائل⁽⁴⁾.

قضى حياته كلها بزواية الهامل في خدمة الناس وطلبة العلم معلما وإماما ومفتيا ومؤلفا ولا يكاد ينافسه في التأليف في مختلف الفنون منافس إلا الشيخ عبد القادر المجاوي ولكن الديسي يفوقه في كثرة التأليف ، ومع ذلك كله لم يحظ تراثه العلمي بالدراسة والتحقيق اللهم إلا دراستين أكاديميتين حقق فيهما له عملاقان هما المشرب الراوي على منظومة الشبراوي⁽⁵⁾ ، والقهوة المرتشفة في شرح منظومته على الجمل "الزهرة المقتطفة"⁽⁶⁾ ، وكلاهما في النحو.

وأما الدرة النفيسة التي وُجّهت إليها - كما أشرت إلى ذلك آنفا - فهي حاشيته على شرحه "القهوة المرتشفة" لنظمه في الجمل "الزهرة المقتطفة" والتي سماها "الحديقة المزخرفة" وبعد اطلاعي عليها في نسختين تحصلت عليهما من جمعية الديسي بالهامل (بوسعادة) وجدتها بحق حديقة مزخرفة تنوعت فيها الأزهار والرياحين وفاحت بكل شذى وطيب ، فهي ليست حاشية كما هو معهود في الحواشي بل لست أغالي إن قلت: إنها أكثر مؤلفاته اللغوية والأدبية فائدة وأغزرها علما وأكبرها حجما ففيها النحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب والعلوم الشرعية والتصوف وقد فرغ من تأليفها في 17 رمضان 1302 هـ.

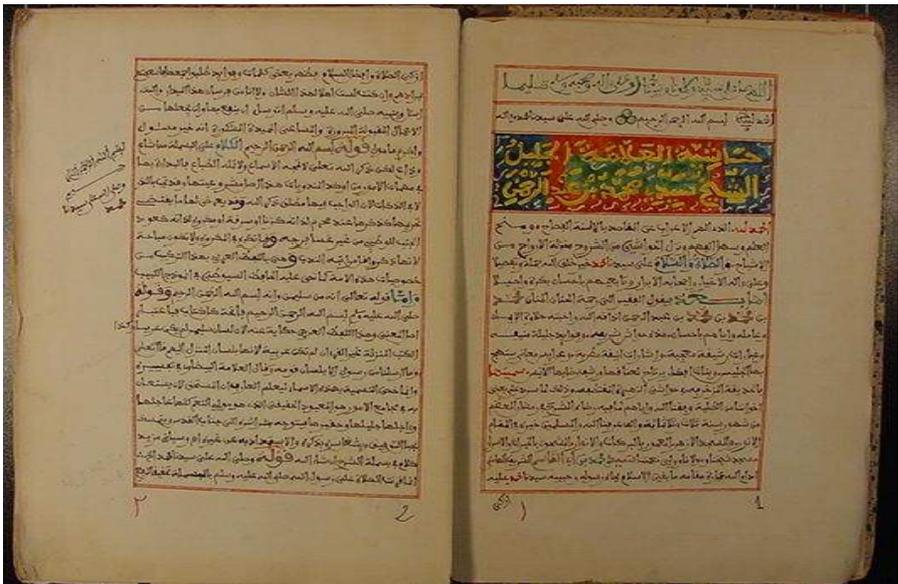
لهذه الأسباب والدواعي أزمعت على كشف اللثام عن حسنها وعرضها على المهتمين وطلاب العلم محققة ومقدمة بدراسة مستفيضة حول الشيخ وعصره، والزوايا ومساهماتها العلمية والثقافية في حفظ هوية هذه الأمة من عمليات المسخ والسلخ، التي مارسها المستدمر الفرنسي آنذاك، وذلك بتقديمها مشروع دكتوراه في تحقيق المخطوطات.

هذا وقد ظفرت بنسختين من أصل ثلاثة نسخ للكتاب، فالنسخة الأولى وهي جيدة موجودة عند جمعية الديسي بالهامل، وقد يكون مصدرها زاوية الهامل! وهي في: 131 صفحة (وجه وظهر) مؤطرة، بمسطرة: 23 سطر×12 كلمة، وخطها مغربي جميل أسود، والكلمات المفاتيح ملونة بالأحمر والأخضر والأزرق والأصفر، وفيها التعقيبية، والشرح مكتوب على الهامش، كتبت في حياته بيد الشريف بن الحاج محمد المقراني باش آغا في 23 شوال 1329 هـ.

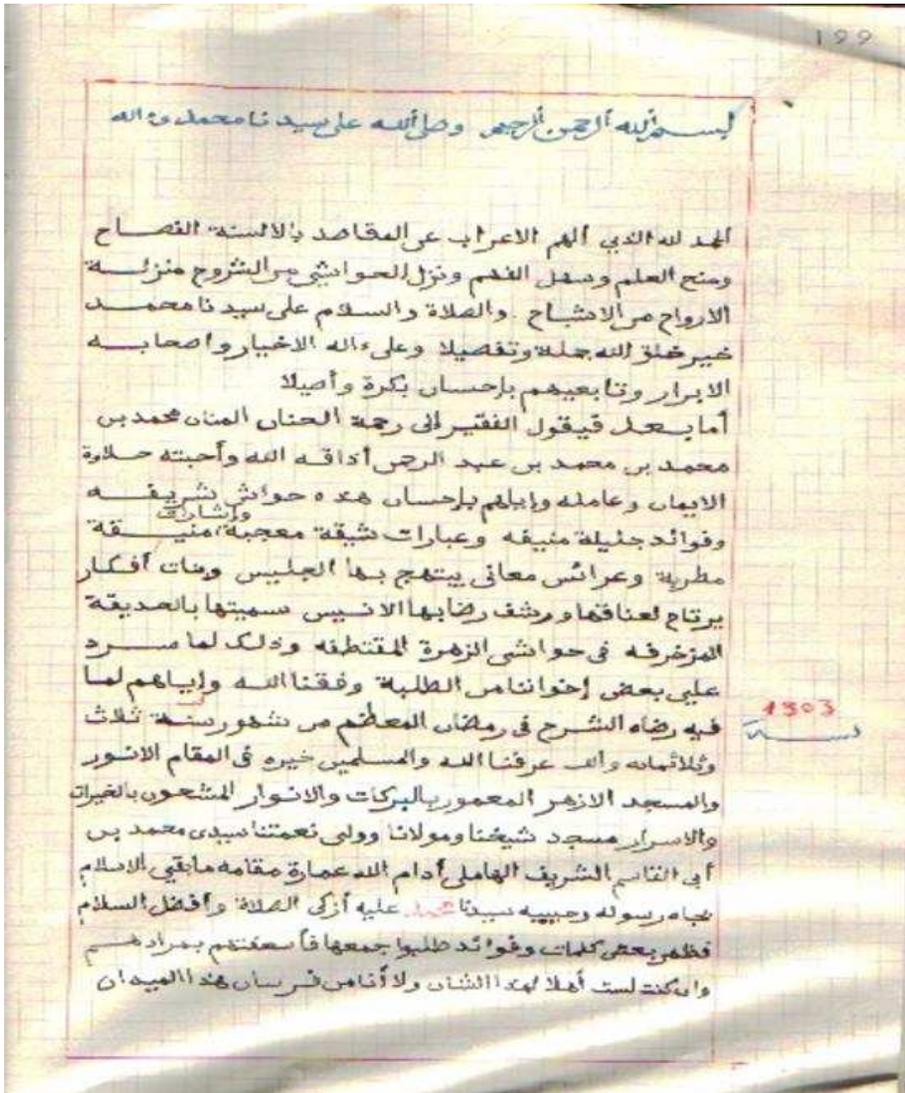
وأما النسخة الثانية فإنها لا تقل عن الأولى جودة، وخطها نسخي جميل وهي موجودة عند جمعية الديسي كالأولى وهي مؤطرة بالأحمر في 117 صفحة بمسطرة: 25 سطر×10 كلمة، واستعملت فيها الألوان المختلفة، وكتب الشرح على الهامش ولا تعقيبية فيها، وهي منقولة عن النسخة الأولى حرفيا وناسخها مجهول.

وأما النسخة الثالثة فلم تقع بعد في يدي إذ وعدني بها أحد المهتمين بالمخطوطات لهذا لا أعلم لها وصفا.

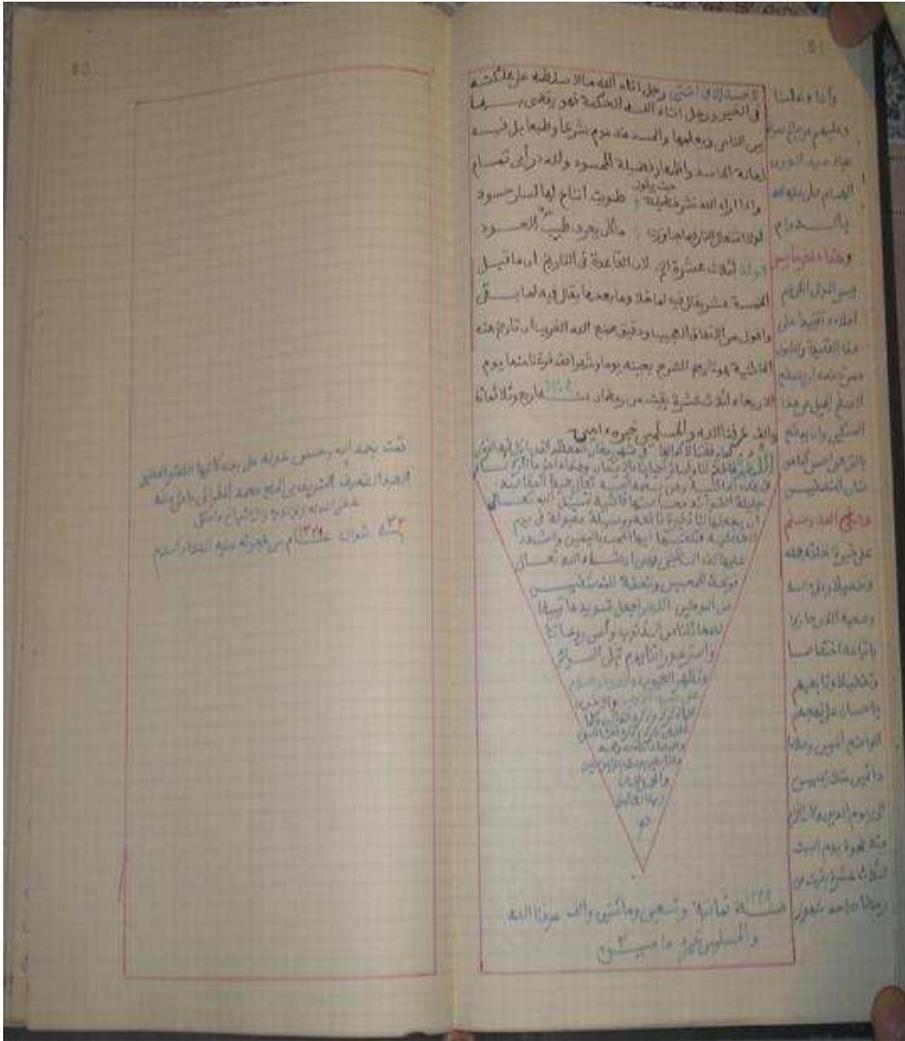
وهذه صور لبعض صفحات النسخة الأولى، وقائمة أولية بالمصادر والمراجع المستعملة.



ظهر الورقة الأولى ووجه الورقة الثانية من النسخة الأولى (الأصل).



وجه الصفحة الأولى من النسخة الثانية.



الصفحتين الأخيرتين من النسخة الثانية.

قائمة المصادر والمراجع التي لها علاقة بموضوع الدراسة:

1. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. د/ أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط2: 1990.
2. إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر. محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان. طبع وإشهار: داود بريكس، تلمسان. ط1 (1422هـ/2001م).
3. إرشاد المتعلمين. الشيخ عبد القادر المجاوي. طبعة حجرية. مصر. ط: 1294هـ/1877م.

4. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت، لبنان. ط10: 1992.
5. أعلام المغرب العربي. محمد الصالح الصديق. موفم للنشر، الجزائر. ط: 2000.
6. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. د/ يحي بوعزيز. دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان. ط1: 1995.
7. إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ. الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مر: د/ محمد عبد المعيد خان. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط2: 1406 هـ/ 1986 م.
8. الإنصاف في مسائل الخلاف. كمال الدين أبو البركات الأنباري. ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف لمحمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان. ط1: 1424 هـ/ 2003 م.
9. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. جمال الدين بن هشام الأنصاري، ومعه عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لمحمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. (ط د ت).
10. باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان. الحاج محمد بن رمضان شاوش. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط: 1995 م.
11. البلغة في تاريخ أئمة اللغة. الإمام مجد الدين محمد الفيروز آبادي. تح: بركات يوسف هبود. المكتبة العصرية، بيروت، لبنان. ط1: 2001 م.
12. بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى الحلبي وشركاه. (ط د ت).
13. تاريخ الجزائر الثقافي. د/ أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط1: 1998.
14. تاريخ الجزائر العام. عبد الرحمن الجيلالي. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط7: 1415 هـ/ 1994 م.
15. تاريخ العرب الحديث. د/ زاهية قدّورة. دار النهضة العربية، بيروت، لبنان. ط1405 هـ/ 1985.
16. تاريخ قسنطينة. محمد الصالح العنتري. مراجعة وتقديم وتعليق: أ. د/ يحي بوعزيز. دار هومة الجزائر. ط: 2005 م

17. تاريخ المغرب الكبير. د/ السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة العربية، بيروت، لبنان. ط: 1981.
18. تاريخ المغرب وحضارته. د/ حسين مؤنس. العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ط 1: 1412هـ/1992م.
19. تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدينة، مليانة. الشيخ عبد الرحمن الجيلالي. نشر وزارة الثقافة الجزائر. ط2: 2005م.
20. تاريخ مدينة السلام. الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. تح: د/ بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط1: 2001م.
21. تهذيب الأسماء واللغات. الحافظ النووي. إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. (ط د ت).
22. تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني. دائرة المعارف النظامية، الهند. ط1: 1325هـ.
23. تهذيب الكمال في أسماء الرجال. الحافظ جمال الدين المزي. تح: د/ بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط3: 1994م.
24. تهذيب اللغة. الأزهرى أبو منصور محمد. تح: عبد السلام هارون. الدار المصرية للتأليف والترجمة. ط(1384هـ/1964م).
25. جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير الطبري. تح: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط1: 1420هـ/2000م.
26. الجزائر في التاريخ. مجموعة من الأساتذة. وزارة الثقافة والسياحة. الجزائر. ط: 1984م.
27. الحركة الوطنية الجزائرية. أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط1
28. كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون. مصطفى بن عبد الله الرومي (حاجي خليفة)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط(1413هـ/1992م).
29. كشاف اصطلاحات الفنون. تأليف الشيخ العلامة محمد علي بن علي محمد التهانوي الحنفي (ت1158هـ)، وضع حواشيه: أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1(1418هـ/1998م).
30. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. الحافظ أبو نعيم الأصفهاني. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. (ط د ت).

31. خزانة الأدب ولب لباب العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي. تقديم وتهميش وفهرسة: د/ محمد نبيل الطريفي. د/ إميل بديع يعقوب. منشورات علي بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. (ط د ت).
32. دائرة المعارف الإسلامية. كارل بروكلمان. مترجمة إلى العربية.
33. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة. ابن حجر العسقلاني. تح: د/ سالم الكرنكوي الألماني. دار الجيل، بيروت، لبنان. ط1414هـ/1993م.
34. الديسي: حياته وآثاره وأدبه. عمر بن قينة. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. (ط د ت).
35. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. أبو الفوز محمد أمين البغدادي. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ط: 1409هـ/1989م.
36. سير أعلام النبلاء. الحافظ شمس الدين الذهبي. تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط: 10: 1414هـ/1994م.
37. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. الشيخ محمد بن محمد بن مخلوف. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. (ط د ت).
38. شرح لامية الأفعال. بدر الدين محمد بن محمد بن عبد الله. تحقيق: هلال ناجي. عالم الكتب، بيروت، لبنان. ط1: 1420هـ/1999م.
39. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد الحنبلي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. (ط د ت).
40. الشفا بتعريف حقوق المصطفى. القاضي أبو الفضل عياض اليعصبي. ومعه حاشية: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة أحمد بن محمد الشمني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ط(1409هـ/1988م).
41. الشعر والشعراء. ابن قتيبة. بيروت، لبنان. ط: 2: 1969م.
42. الصاحب في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها. أبو الحسن أحمد بن فارس. تعليق وحواش: أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1(1418هـ/1997م).
43. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. ط: 2: 1414هـ/1993م.
44. صحيح البخاري. الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. وضع فهرسه: د/ مصطفى ديب البغا. موفم للنشر، الجزائر، ودار الهدى عين مليلة الجزائر. ط: 1992م.

45. صحيح مسلم بشرح النووي. موافق للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث. بإشراف: حسن عباس قطب. دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية. ط1 (1424هـ/2003).
46. صفة الصفوة. الإمام جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي. تح: محمود الفاخوري. دار الوعي حلب، سوريا. ط1: 1390هـ / 1970م.
47. الصلة. أبو القاسم بن عبد الملك (ابن بشكوال). الدار المصرية للترجمة والتأليف. ط 1966م.
48. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. الإمام شمس الدين محمد السخاوي. منشورات دار مكتبة الحياة. (ط د ت).
49. طبقات الحفاظ. جلال الدين السيوطي. ضبط لجنة من العلماء. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ط2: 1414هـ / 1994م.
50. طبقات الشافعية. ابن قاضي شعبة. تح: د/ الحافظ عبد الحلیم خان. عالم الكتب، بيروت لبنان. ط1: 1987م.
51. طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي.

هوامش البحث:

- (1) فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (562/2).
- (2) تنظر ترجمته في: فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (10/1)، و (856/2)، ومعجم المؤلفين (281/11)، وهدية العارفين (باب اللام) (157/2)، وتعريف الخلف برجال السلف (399/2)، و (400)، والديسي حياته وآثاره وأدبه لعمر بن قينة. ص: 13، ونهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة لمحمد علي ديوز. (562/2).
- (1) فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (10/1).
- (2) الديسي حياته وآثاره وأدبه. ص: 41.
- (3) حققه بو عبد الله لعبيدي ونال به شهادة الماجستير من قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر: 2001.
- (4) حققه عبد الحفيظ جوبر ونال به شهادة الماجستير من قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر: 2001.